"ابن فارس" هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي، و كان كما يقول عنه الثعالبي: «من أعيان العلم و أفذاذ الدّهر، يجمع إتقان العلماء و ظرف الكتّاب و الشعراء».

كان والده فقيها شافعيا لغويا، و قد روى عنه "ابن فارس" كتاب "ابن السكيت" كما ذكر ذلك في مقدمته، و من شيوخه "ابن الخطيب" راوية ثعلب، و هذا يشير إلى أنّه كان ينزع إلى مذهب الكوفيين، و من شيوخه كذلك "ابن سلمة القطان" و "أبو عبيد الله أحمد بن طاهر المنجم".

و قد أشار "ابن خلكان" إلى مؤلفات "ابن فارس" و أشاد بها، كما نوّه بفضله على من اشتهروا في عصره أو بعده، فقال: «كان إماما في علوم شتى و خصوصا اللغة، فإنه أتقنها، و ألف كتابه "المجمل ". و له رسائل أنيقة، و مسائل في اللغة، و يعالي بها الفقهاء، و منه اقتبس الحريري صاحب المقامات... ذلك الأسلوب، و وضع المسائل الفقهية في المقامة الطبيّة، و هي مائة مسألة، و كان مقيما بهمذان، و عليه اشتغل بديع الزّمان الهمذاني صاحب المقامات».

و من أشهر من تتلمذ عليه كذلك، "ابو طالب بن فخر الدّولة البويهي"، و "الصّاحب بن عبّاد"، و كذلك "علي بن القاسم المقري".

و لابن فارس شعر طريف يقصد فيه إلى الدّعابة و السخرية، كذلك كانت له آراء نقدية أوردها في مساجلة أدبية بينه و بين الشاعر "عبد الصّمد بن بابك"، و فيها يعيب على أهل عصره عقولهم بتمسكهم بالشعر القديم و شعر الشعراء المشهورين، و إهمالهم ما دون ذلك من الشعراء المغمورين و إن تميز شعرهم بالأصالة و الجدّة. واختلف في تاريخ وفاة "ابن فارس"، و الأرجح أنه توفي سنة 395ه.

1- تصنيف المادة اللغوية في المعجم:

كانت اللّغة قد جمعت و صنفت في كتب ذات موضوعات مختلفة في القرن الرّابع، كما كان تأثير "كتاب العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي قد بلغ ذروته عند من ألّفوا في المعاجم من بعده، مثل: القالي في البارع، و الأزهري في التهذيب، و الصاحب بن عبّاد في المحيط، وابن سيده في المحكم، فلقد نحا هؤلاء نحو "الخليل" و تأثروا بمنهجه في ترتيب حروف المعجم وفقا لمخارج الحروف.

غير أنّ "ابن فارس" رأى أن يصنّف المادة اللغوية على نحو آخر بهدف الكشف عن مزيد من خصائص اللّغة العربية، و إفادة الباحثين من بعده في هذا المضمار، و في هذا يقول "ابن فارس" في مقدّمة كتابه: «إنّ للغة العرب مقاييسا صحيحة، و أصولا تتفرّع منها فروع، و قد ألّف الناس في جوامع اللّغة ما ألّفوا، و لم يُعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس، و لا أصل من تلك الأصول، و الذي أومأنا إليه من باب العلم جليل، و له خطر عظيم، و قد صدرنا كلّ فصل بأصله الذي يتفرع منه مسائله، حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتّفصيل، و يكون المجيب عما سأل عنه مجيبا عن الباب المبسوط بأوجز لفظ و أقربه».

و معنى هذا أنّ فكرة مقاييس اللّغة هي المسيطرة على "ابن فارس"، و هو يعني بها المعنى المشترك بين صيغ اللفظ المختلفة، و من ثم فقد سمّى كتابه "مقاييس اللغة"، على أن "ابن فارس" إذا كان قد نجح إلى حدّ كبير في استنباط المعنى المشترك بين صيغ المادة في الثنائي و الثلاثي، فإنه عندما حاول ذلك في الألفاظ الرّباعية و الخماسية لم يتمكن من ذلك، و لهذا فقد حاول استنباط معاني هذه الألفاظ من خلال نظرية أخرى هي نظرية النّحت، و يقول في ذلك: «اعلم أنّ للرباعي

و الخماسي مذهبا في القياس يستنبطه النظر الدقيق، و ذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت، و معنى النّحت أن تُؤخذ كلمتان و تنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ».

على أنّ "ابن فارس" يعترف بأنّ هذا الاتجاه في تصنيف اللغة لم يكن من ابتكاره، بل كان "الخليل بن أحمد الفراهيدي" له فضل السّبق في الإشارة إلى هاتين النظريتين، أي نظرية المعنى المشترك بين مشتقات اللفظ في الثنائي و الثلاثي، و نظرية النّحت في الرباعي و الخماسي، و إن لم يأخذ هذا المبحث عند "الخليل" شكل نظرية أو بحث متكامل كما حدث عند "ابن فارس"، يقول: «قال الخليل: يقال جذا يجذو مثل جثا يجثو، إلّا أن جذا أدل على اللّزوم، و هذا الذي قاله الخليل، فدليل لنا بعض ما ذكرناه من مقاييس الكلام، و الخليل عندنا في هذا المعنى إمام».

و يقول في مكان آخر في "باب ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوّله باء"، بعد أن أشار إلى نظرية النّحت: «و الأصل في ذلك ما ذكره الخليل من قولهم حَيْعَلَ الرّجل إذا قال: حيّ على».

2- مصادره:

ذكر"ابن فارس" في مقدّمة كتابه الموجزة أنه استمدّ مادّته من كتب خمسة هي: كتاب العين للخليل، و كتاب غريب الحديث لأبي عبيد، و كتاب مصنّف الغريب لأبي عبيد أيضا، و كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت، و الجمهرة لابن دريد.

3- ترتيب المعجم و أبوابه:

رتّب "ابن فارس" معجمه وفقا للترتيب الأبجدي، فجعل لكلّ حرف كتابا، فكتاب في الهمزة، و كتاب في الباء، و كتاب في التّاء، و هكذا. ثم قسّم كل كتاب إلى أبواب، فباب للثنائي المضاعف، مثل: أبَّ، و أتَّ، و أثَّ، و هكذا. و باب للثلاثي، مثل: أبَتَ و أبَثَ و أبَدَ، فما زاد عن ذلك في الرّباعي أو الخماسي خصّه بباب، و بذلك يكون "ابن فارس" قد اختصر أبواب "الخليل" حتى يتمكن من تطبيق نظريته تطبيقا محكما.

و الباب عنده يبدأ بالحرف الذي يكتب فيه ثم يتبعه بالحرف الذي يليه، فالهمزة مع الباء مثل أب، ثم الهمزة مع التاء مثل أت و هكذا، و ذلك في الثنائي، أمّا في الأبواب التي تختص بالثلاثي فقد بدأها بالهمزة و الباء و التاء، ثم الهمزة و الباء و الثاء، ثم الهمزة و الباء و الجيم و هكذا. فإذا كان الباب في الهمزة و التاء و ما يثلثهما، بدأ بالحرف الذي يلي التاء لا الّذي سبقها، أي أنه لم يبدأ بأتَب، بل سلسل ألفاظ هذا الباب على النّحو التالي: أتل، أتن، أته، أتو، أتى، ثمّ يعود فيأتي بمادة أتب في نهاية الباب. و بالمثل في باب الهمزة و الجيم و ما يثلثهما، فقد بدأ بعد الهمزة و الجيم بما يلي الجيم و هو الحاء، فأصبحت مواد الباب على النّحو التالي: أجح، أجد، أجر، أجص، أجل، أجم، أجن، ثمّ عاد فاستدرك مادة أجأ في نهاية الباب.

و قد أخذ "ابن فارس" هذا الترتيب عن "الخليل"، و لكن "الخليل" كان له مبرّره في اتّباع هذا النّظام، و هو أنه كان يجمع التقاليب في موضع واحد، فإذا كان يكتب على سبيل المثال، في مادة "أبت" أورد تقاليبها و هي: أتب و بأت و تأب و بتأ و تبأ، و من ثمّ فإنه إذا عاد و كتب بعد ذلك في مادة الهمزة و التاء و ما يثلثهما، استبعد مادّة "أتب" التي كتب عنها من قبل، و يأتي مباشرة بمادة "أتث"، أمّا "ابن فارس" فإنّه لم يكن يأتي بالتقاليب، و لكنّه لمّا سار مع نظام إيراد الحرف مع ما يليه حتّى يصل إلى الياء من كلّ مادة، اضطّر إلى إضافة الكلمات المؤلّفة من الحرف و الحروف السّابقة عليه في نهاية الباب.

على أنّ "ابن فارس" لم يراع هذا الترتيب في الكلمات الرباعية و الخماسية، واكتفى بأن أتى بالألفاظ للحرف المعقود له كلّ باب دون مراعاة للحرف الثاني، و دون مراعاة للفصل بين الرّباعي و الخماسي.

لقد انفرد معجم "مقاييس اللّغة" بفكرته الخاصّة التي لم يشاركه فيها معجم آخر، و قد أخلص المؤلف لدراسة فكرته و إثباتها علميا، بحيث جعلها قاعدة في اللغة العربية، و فضلا عن ذلك فقد آلى "ابن فارس" على نفسه ألاّ يأتي إلا بالكلام العربي الفصيح، يقول: «و قد شرطنا في أوّل كتابنا هذا ألاّ نقيس إلاّ الكلام الفصيح»، و من ثمّ فقد نصّ على كلّ ما هو مشكوك في صحّته.

إنّ معجم "مقاييس اللّغة" معجم خاص، يهّم الباحثين في فقه اللغة العربية بالدّرجة الأولى، و ليس من المعاجم التي يُرجع إليها في الأحوال العادية لمجرّد الكشف عن معنى لفظة من ألفاظ اللّغة.